

عالم النمل

كتاب ألفه موريس ماترلينك شاعر بلجيكي ألف بالفرنسية ونال جائزة نوبل ١٩١١ تقول الموسوعة العربية عن هذا الكتاب أنه من أبدع كتبه.

ترجم هذا الكتاب الأستاذ شفيق اسعد فريد.

والكتاب من عشرة فصول. يقول المؤلف في مطلع الفصل الأول:

(إن النمل حشرات شوكية غشائية الأجنحة، مؤهلة - لحفر الأرض، اجتماعية. وقد بلغ عدد الأنواع التي أمكن وصفها حتى الآن ستة آلاف نوع، لكل منها عاداته الخاصة وصفاته الفردية). وإن كان هذا العدد أكبر كثيرا في العصور الجيولوجية الأولى.

ونقف هنيهة عند كلمة (اجتماعية) فالمؤلف يقطع بأن النمل العادي والنمل الأبيض حشرات اجتماعية قبل كل شيء. أما النمل فيعتبر اجتماعيا بصفة استثنائية فقط على عكس الاعتقاد العام، وواقع الأمر، إن العلم يعرف عشرة آلاف نوع من النمل منها خمسمائة نوع فقط تعيش في مجتمعات، بينما لا يوجد نوع واحد منعزل من النمل أو النمل الأبيض.

وعلى العكس من النمل الأبيض الذي يقتصر وجوده على البلاد الحادة، غزا النمل جميع الجهات المأهولة تقريبا في العالم، باستثناء أقصى الشمال، والمناطق شديدة الارتفاع..

وقد أمكن فحص أحد عشر نوعا من النمل كانت موجودة في كهрман البلطيق. وفحص أيضا سبعمائة وأحد عشر نوعا منه وجدت في كهрман صقلية في العصر المتوسط. وشبيهه بالإنسان في تطوره، النمل في مراحل نموه.

ويقول «هويلر»: (انتقل النمل تحت ضغط الظروف المختلفة، من الحياة الترابية - التي كانت طريقة معيشته الأصلية - إلى الحياة الشجرية، ثم انتقل من النظام الحشري الذي تميز فيه بالافتراس، وكان يغذى نفسه فيه بلحم الحشرات الأخرى، إلى نظام السعى وراء القوت، وأخيرا إلى المرحلة الزراعية والنباتية.

ومن العجيب أن هذا الارتقاء، شبيه بارتقاء الإنسان الذي نشأ صيادا أول الأمر، ثم راعيا، فمدافعا وأخيرا عاملا.. وليس من شك في أن هذه المصادفات تدعو إلى الغرابة.

ويتكون سكان عش النمل من الملكات، وهى الأناث الملقحة التى تعيش فترة الحمل إلى اثنى عشر عاما. ولا توجد فى عالم النمل ملكة أو أم واحدة.

وهنا تواجهنا مشكلة كبرى هى: من الذى يحكم العش؟

يقول المؤلف: من الجائز أن نتمكن فى أحد الأيام من أن نكتشف فى تل النمل علاقات اكترونية- مغناطيسية، أو اثيرية أو فيزيقية كاملة معقدة لا نعرف عنها أى شىء فى الوقت الحاضر.

وللنمل فى الهجرة، أسلوب شيق طريف، فقد يتفق أن نكتشف نملة، فى تجوالها، عش نمل مهجور ترى أنه أكثر ملاءمة من العش الحالى «فستستخدم قرن استشعارها فى الطرق لإبلاغ أختين أو ثلاث من أخواتها بالاكتشاف الذى وقعت عليه، وتجذبهما فيما يشبه العنف لتطلعهما على العش، وتبين مزاياه، وتسمح الأختان لنفسيهما بالاقتناع، بما تقوله أختهما، وتقومان بدورهما فى إقناع غيرهما بمزايا العش الجديد، وهكذا تبدأ حركة هجرة شاملة إلى هذا العش. وتكون الخطوة التالية نقل المحارن الكسالى، وتتولى كل نملة من الرقيق نقل نملة من السادة إلى المنزل الجديد. وتضعها عند مدخله حيث يستقبلها عدد آخر من النمل الرقيق الذى يمضى بها إلى الجزء الأسفل من العش، وبعد ذلك ينهمك النمل الرقيق فى نقل البويضات واليرقات والخوريات.

وفى الفصل الثانى (أسرار عش النمل) يقول المؤلف:

دلت الدراسات والملاحظات على أن النملة هى، بلا منازع، أنبل وأسخى وأشجع وأخلص، وأكثر مخلوقات هذه الدنيا إثارا للغير.

ويرجع ذلك إلى عضو وهبتها الطبيعة إياه.. ذلك هو كيس غير عادى يوجد عند مدخل بطن النملة، ويمكننا أن نطلق عليه «الكيس الاجتماعى» أو «المحصول». ويوضح هذا الكيس الناحية النفسية والخلفية فى حياة النملة كما يوضح الجزء الأكبر من مستقبل حياتها، ولذلك يجب أن نتأمله بعناية قبل أن نغضى فى حديثنا. ليس هذا الكيس معدة، فهو لا يحتوى على غدد هضمية، كما أن الطعام المقدس بداخله يحفظ صحيحا ولما كان غذاء النملة، التى تملك فكا أسقل قويا

يمكنها من اقتناص فريستها أو عدوها، وتمزيقه، وتقطيع أوصاله، وتقسيمه، وشل حركته، ولكنها لا تملك أسنان تستطيع المضغ بها، نقول لما كان غذاء النملة يكاد يكون سائلا تماما ويشبه إلى حد ما ماء سكريا- فإن الكيس المشار إليه يشبه إيريا للتجميع، تحتفظ النملة به خصيصا لفائدة بنى جنسها.

ومن العجيب أن هذا الكيس مطاط بشكل مدهش، ويشغل أربعة أخماس مساحة المعدة، وهو يدفع جميع الأعضاء الأخرى جانبا، كما أنه قابل للتمدد إلى درجة تجعله يتخذ شكل الأبريق، أو على الأصح شكل «بنبونة» يبلغ حجمها ثمانى أو عشر مرات حجم المعدة العادية.

تقول الاسطورة: «إن النملة لا تقرض» وهذا صحيح، فإن النملة لا تقرض لأن الأقراض علامة البخل، بينما تقدم النملة كل ما لديها بلا تدبر أو تفكير، كما أنها لا تطالب بالوفاء أبدا.. والنملة لا تملك شيئا حتى ولا محتويات جسمها.

وهي قلما تفكر فى الأكل.. فعلا تعيش إذن.. لعل تعيش على الجو أو الكهرباء المنتشرة أو الابخرة أو الشذى.. فإنك تستطيع أن تحرم النملة من الطعام أسابيع.. ومع ذلك فإنها لا تموت مادمت تهيم لها قليلا من الندى.. إن نقطة من الندى تكفى لملء معدة النملة.. ولذلك فإن كل ما تسعى دائما لتكديسه، فى الكيس الذى أشرنا إليه، إنما يستهدف خير المحصول الجماعى.. أى الحقيبة الشعبية.. إنها تكديسه للبيوضات واليرقات والخوريات ورفقاتها بل وأعدائها أيضا. وهكذا ترى أنها ليست أكثر من عضو للإحسان.. إنها عاملة لا تكل، متقشفة، عفيفة، عذراء وكل متعتها هي أن تقدم لكل من يرضى جميع ثمار عملها.

ومن طرائف النمل أنه يبلغ من طيبة القلب، درجة تجعله، حتى عندما يحتدم أوار القتال. لا يستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع ولهذا يقدم له حاجته من الطعام قبل استئناف القتال !!!

وسلاح النمل يتمثل فى الفك الأسفل ويشكل هذا الفك نوعا من الكماشة أو القاطع، وبعضه قصير وملئو كملقط طيبب الأسنان، وبعضه الآخر طويل كخطاف الحصاد وينتهى أحيانا بسن مدبب يستطيع اختراق جمجمة العدو بمتنتهى السهولة.

وتختلف عادات النمل فى الحرب اختلافا كبيرا كاختلاف أجسامه وأسلحته، إلا أن العجيب أن كل نوع من أنواع الحروب التى يمارسها البشر موجود فى دنيا النمل: الحروب المكشوفة،

والهجوم شامل، والتعبئة العامة وحرب الخنادق، والمفاجآت، وخطط التسلل وحرب الإبادة الشاملة والحصار، والاقتحام، والهجوم، والتقهقر، والانسحاب الاستراتيجي، وأحيانا النزاع بين الحلفاء، وهلم جرا.

ومع ما يتمتع النمل به من حسن التنظيم العسكري، والقدرة على القتال إلا أن هذه الحشرة البسيطة تحترم ملكية الغير، ولا تسعى استعمال قوتها وتتجنب كل أسباب النزاع ومناسباته، وتركز اهتمامها كله في شئون العش الذي تعيش فيه.

ويصف «هيوبري» معركة من معارك النمل:

لأبد أن يرسل الجيش قوات قليلة لاستكشاف عش العدو الذي يريد نهبه، يرسل كتائب صغيرة لمحاصرة هدفه تدريجيا. ولكن ما إن يشر الفريق الآخر بالخطر الذي يتهدده حتى يتجهروا حول المداخل، ويسدوها على قدر الإمكان بحبات من الرمل. وهنا تصدر إشارة خفية لا علم لنا بمصدرها، فيندفع الغزاة في هجوم شامل. ويحاول المدافعون المقاومة، إلا أنه لما كان المهاجمون يفوقونهم عددا، فإن المدافعين يضطرون إلى دخول العش يائسين، ولكنهم سرعان ما يعودون وقد حملوا حورياتهم بعد أن قرروا إنقاذها بأي ثمن. ولكن الغزاة ينتزعون الحوريات من المدافعين عنوة. ويضعونها مؤقتا بالقرب من مدخل العش ويسمحون للأمهات الملقحات وغيرهن من العاملات غير المشتركات في القتال بالمرور بغير أن يتعرضوا لهن بأذى.

وبعد ذلك ينقل الغزاة حوريات العدو إلى مستعمراتهم الخاصة ثم تمضي ثلاثة أيام طويلة وطواير الغزاة تروح إلى العش الذي سقط، وتجيء إلى عشها حاملة ما تستطيع أن تنهبه من مؤن وطعام، إلى أن تتم تصفية عش العدو المهزوم.

وفي الفصل الثامن يتحدث المؤلف عن النمل الزراعي ومن أنواعه النمل صانع الحقائق الهوائية ويبنى هذا النمل أعشاشه المستديرة كالكرة فوق مواضع اتصال أغصان الأشجار بجذوعها، والعجيب في الأمر أن النمل يبذر في أعشاشه بذور النباتات الهوائية، وهي نباتات صغيرة فطرية ولكن النمل لا يزرع هذه البذور طمعا في زهورها وخضرتها وإنما لتقوية عشه بواسطة الشبكة الليفية لهذه الفطريات المزعومة وبذلك يامن النمل غوائل الشتاء قارس البرد غزير الأمطار والصيف المحرق.

وهناك النمل النساج (ويسفر). وهذا النمل يعيش في المناطق الحارة بآسيا وافريقيا واستراليا والهند الصينية حيث يلقي في البلاد الأخيرة احتراماً كبيراً من الأهالي الذين يحمونهم لأنه يدافع عن نباتاتهم ضد هجمات مختلف أنواع الطفيليات.

أما النمل الصحراوي الذي يقضى معظم حياته في نقل حبات الرمل فمزود برءوس هائلة على شكل معول، أو ملعقة أو قبة.

ومن الطريف قول المؤلف (يكفى أن نرسم فوق رقعة من الورق أشكال وجوه مختلف أنواع النمل العامل أو المحارب حتى تتجمع لدينا مجموعة من الأقمعة لا تتوفر في أية حفلة تنكرية تقام في نيس أو فينيس أو في أي مكان آخر.

وهنا النمل الطفيلي وقد أثبتت الملاحظات والاحصاءات أن عدد أجناس النمل الطفيلي التي عرفت حتى الآن ألفا جنس.

ولعل سذاجة النمل، وكرمه الذي يغلب عليه صفة الحماقة وترحيبه بكل قادم جديد هو الذي يطمع الأجناس الطفيلية فيه.

ولهذا النوع من النمل قصص وعجائب وطرائف فصلها الكتاب.

وهناك أيضاً جنس من النمل الطفيلي البورجوازي وقصصه في الكتاب ممتعة.

وهكذا تمضي الفصول العشرة في هذا الكتاب الرائع حقاً وقد جعل، له، المؤلف خاتمة حافلة بالطرائف.

فأولاً وقبل كل شيء إن صحة النملة ونشاطها لا يتعرضان للمرض أو التدهور، بل إن النملة التي تقطع رأسها تعيش عشرين يوماً وتظل واقفة على أقدامها حتى النهاية.

والنملة تتجاهل قوانين الجاذبية ولهذا تنسلق، وتهبط السطوح العمودية كما لو كانت تسير فوق سطوح أفقية مستوية. وهي لا تتعرض لما نتعرض له من أوبئة وأمراض، بل إننا لا نعرف حتى متى تموت لأن عودتها إلى الحياة سهلة لا تخطر على البال كما أثبتت التجارب التي أجرتها الأنسة فيلد، إذا عادت أربع غلات من سبع إلى الحياة بعد أن أبقيت سبعة أيام تحت الماء.

والنملة تتمتع بالسعادة فى منزلها لأنه ليس، فيه، ما تخشاه، إن منزل النملة حافل بالسلام والوفرة والإخاء التام.

يقول المؤلف (السعادة إيجابية عند النملة، ويبدو أنها الكائن الوحيد فى العالم الذى يتمتع بهذه السعادة الايجابية، فمن الناحيتين البدنية والعضوية، فإن النملة لا تشعر بأية سعادة إلا إذا هيات السعادة لمن حولها وهى لا تشعر بأية مباحج سوى ما يهيؤه لها أداء الواجب، وهو أمر ندر أن يتوفر فى الإنسان.

ومع هذا هناك علامة استفهام ستظل معلقة. فالمؤلف يسأل فى الفقرة الأخيرة من الكتاب: (ما هى الغاية من حياة النمل وقوته؟)

سؤال كما يقول يحير عقل الإنسان..

وأنا لا أرى حيرة.. إن عظمة الخلق فى النملة أكبر منها فى أشياء كبيرة. لقد تعلمت أشياء كثيرة من هذا الكتاب أى من النمل، لقد، مر، بنا ما جبلت عليه النملة من ايثار وسخاء وعطاء بلا حدود ثم قيم العمل والتضحية والصبر، وأخلاقيات الحرب.. ألا يكفى هذا سببا لوجود النمل..

إنى سيدة أئضامن مع السيدات فى إبعاد النمل عن البيت ولكنى غدوت بعد قراءة هذا الكتاب أحترمه.. من بعيد لبعيد.. ليكن.